[1]

كَيْفَ نَسْتَنْقِذُ أَسْرَانَا؟

(24 ذو القعدة 1433هـ)

الحمد لله القائل: {وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ} والصلاة والسلام على رسوله الكريم، البشير النذير، وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فليعذرني رجال الله المجاهدين في الأسر، أسأل الله أن لا يجعل هذه الكلمات حظنا من النصرة فقط، بل أسأله سبحانه أن يعيننا على العمل لنصرة إخواننا وخيارنا ولا نزكيهم على الله؛ بفكاك أسرهم ونسأل الله أن يعجِّل لهم بذلك.

أحبتي في الله.. إن الدعوة إلى التوحيد والجهاد مرَّت بمراحل عظيمةٍ، منذ قيام الجماعة الأولى بقيادة خير عباد الله أجمعين نبينا محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم، والمهم في هذا المقام أن نعرض بعض الصور للأسر في المرحلية، وحقّ الأسير على المسلمين، والواجب على الأسير في أسره، ونسأل الله العظيم أن يسدد القول ويثبت الحجة، وأن يشفي به قلوب المؤمنين.

كانت الجماعة الأولى بقيادة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام هي التي تقوم بكل تكاليف الدين والدعوة، من دعمٍ وبذلٍ وتضحيةٍ بالرجال بين أسر وقتل، وهذا هو حالنا اليوم؛ أنَّ المجاهدين في سبيل الله هم الذين تكلّفوا أعباء الجهاد في دفع العدو الصائل، وإقامة الشريعة عن الأمة الإسلامية، ومرُّوا بمراحل الأسر والابتلاء، ونقصٍ في الأموال والرجال؛ ولكنها مرحلية لا بد منها؛ حيث أن الجهاد في هذا الزمان ليس ضد دولة واحدة أو أمة واحدة، بل ضد أمم الكفر وعملائها قاطبة، قال صلى الله عليه وسلم: "يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الآكلة على قصعتها. قيل: يا رسول الله أمن قلة بنا يومئذ؟ قال: أنتم يومئذ كثير؛ ولكن تكونون غثاء كغثاء السيل، ينتزع المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الوهن. قيل: وما الوهن؟ قال: حب الحياة وكراهية الموت" رواه الإمام أحمد، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

ونحن ما زلنا بصورة منظومة وجماعة، وهي التي قال عنها الرسول صلى الله عليه وسلم: "لا تزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله قاهرين لعدوهم لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك" رواه مسلم. فما يصيبنا في طريق دعوتنا وجهادنا من بلاء وشدة إنما هو من مستلزمات الطريق، الذي هو الوسيلة لغايتنا العظيمة أن يكون الدين كله لله.

وسنذكر في مقالتنا هذه -بإذن الله- بعض المراحل التي مرت بها الجماعة الأولى في نصرة الأسير:

المرحلة الأولى: الدعاء للأسرى وتصبيرهم وتذكيرهم بالأجر العظيم من الله تعالى:

عندما أظهرت الجماعة الأولى دعوتها بالصدع والتوحيد، ما كان من قريش إلا أن تعاملت مع هذه الدعوة بأعلى مقامات القمع من أسر وقتل، وكان من صور القمع أسْرُ عائلة بأكملها؛ عمار بن ياسر وأمه وأبوه -رضي الله عنهم وأرضاهم- وكانوا يمرّون بأصناف العذاب وأمام الناس أجمعين، ظاهرين لا في زنازين، وكان قائد الجماعة محمد صلى الله عليه وسلم يمرّ عليهم وينظر إلى حال أتباعه وهم مقيدون بالحبال، الرجال والنساء سواء، فلم يجعله ذلك المنظر يتنازل عن دعوته والصدع بها، ليخفف على أصحابه؛ حيث أن إقامة الدين مقدمة على النفس، بل كان صلى الله عليه وسلم يوصيهم بالصبر، ويعلق قلوبهم بالله وما وعدهم الله على صبرهم على الأذى فيه، فكان يقول: "صبرًا آل ياسر فإن موعدكم الجنة"؛ لأن الابتلاء والأسر من مراحل الطريق، والنصر فيها هو بالثبات لا بالانهزام والتراجع، فلم يأمرهم صلى الله عليه وسلم بالأخذ بالرخص، أو يبعث إليهم طلبة علم أو مشايخ يقنعوهم أن يتنازلوا عن دينهم ويقدموا التراجعات، وتُقتل سمية وزوجها ياسر -رضي الله عنهما- ولم يغيِّر ذلك في منهج الجماعة شيئًا، بل ثبتوا حتى جعل الله سبحانه وتعالى فرجًا في المرحلة التي بعدها، لمن بقي من الأسرى.

المرحلة الثانية: الفداء بالمال:

عندما يئس المشركون في مكة أمام ثبات الأسرى على دينهم وتوحيدهم، بدؤوا يتنازلون من العداء العقدي إلى المصالح، فكان أبو بكر الصديق -رضي الله عنه وأرضاه- يمرّ على أصحابه المعذبين، ويعقد صفقات بيعٍ وشراءٍ مع المشركين الذين يأسرونهم، فكانوا يوافقون مباشرةً، فرضوا بالدنيا عن الآخرة، وبذل الصحابة الدنيا من أجل الآخرة، وهذا هو الفرق بين المنهجين، منهج يريد الدنيا ومنهج يريد الآخرة، فكان أبو بكر يشتريهم ويعتقهم لله، وهذه مرحلة الفداء.

المرحلة الثالثة: الرهائن وتبادل الأسرى:

وفي السنة الثانية من الهجرة بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة عبدالله بن جحش -رضي الله عنه- وكان في آخر أيام رجب من الأشهر الحرم، وأعطاهم رسالة وأمرًا ألا تُفتح حتى يخرجوا من المدينة بيومين، القصة مشهورة في السير والتفاسير وهي التي نزل فيها قول الله تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ...} الآية، والشاهد من القصة أن سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان -رضي الله عنهما- ضاع عليهما بعيرهما في أرض العدو، وهم في أثره يبحثون عنه، وعندما رجع عبدالله بن جحش ومن معه من أصحابه والأسيران، وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرد الأسيرين إلى قريش، توقف حتى يرجع أصحابه المفقودون في أرض العدو سعد وصاحبه، وأبقاهما رهينتين، وهذا من طرق النصرة في فك العاني؛ أن يجتهد في هذا الباب رجال ويبحثوا عن رهائن يفادوا بهم، وهي مرحلة إذا لم يكن للمسلمين جيش يدافع عن

المســلمين ويهب لفك الأســارى من أيــدي العــدو -كما هو حالنا اليوم-.

المرحلة الرابعة: فك الأسرى بالقوة والقتال:

عنـدما تكـونت الدولة الإسـلامية وتوحد الجيش الإسـلامي تحت قيادة محمد صلى الله عليه وسلم وخرجوا إلى الحديبية، وأرســلوا عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليبين لهم مرادهم من القدوم؛ وهو أنهم يريدون العمـرة فقط ولا يريـدون القتـال، فعنـدما جـاء خـبر أسر عثمان وقتله -رضي الله عنه وأرضاه- ما كان من القائد صلى الله عليه وســلم إلا أن حــرَّض الجيش وأخذ بيعة المــوت، وأن لا يفرُّوا حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه قريش الذين أسروا وقتلوا عثمان -رضي الله عنه- (عندما أشيع خبر أسره وقتله).

فهـذه أربع صـور لفك العـاني في هـذه المرحلة وكلّها مقـدور عليها من المجاهدين وأنصـارهم بـإذن الله - ما عـدا الرابعة فعلى حسب الحال والقـدرة- وقد يرتبط صـاحب المـال بمجموعة خطف الرهـائن، ويُنسق بينهم للعمل في فك العـاني المسـلم الـذي من حقه شرعًا أن يُنصر من كل قادر من المسلمين.

وهناك طرق المنظمات الحقوقية التي نسمع بها اليـوم، وفيها من المنظمـات الحقوقية الـتي في بعض بلاد المسـلمين، ويقـوم عليها أناس مسلمون، ولها نظمها وطرقها، وهذه قد ينصر الأسير منها لمن له بها خـبرة من الحقوقـيين المسـلمين، وهـذه يجيـدها والله أعلم بعض المنتسبين إلى بعض التيـارات الإسـلامية -وعنـده سعة في الدين بالتعامل مع هذه المنظمات- فنقبل من المسلمين نصرتهم للأسرى بما يستطيعون ولا نثرِّب على أحد في نصرتهم.

وهناك بعض أهل الهيئات في المجتمعات الإسـلامية وله وجاهة شــرعية أو اجتماعيــة، وإن كــان له مواقف ضــدّ المجاهــدين من تحريض وتشـويه وتفريق للجماعـات الجهاديـة، وتعامل مع وزارات الداخلية، ثم كان منه نصرة للأسرى فلا بأس فنصرة الأسير واجب على العموم، ويُتعامل معهم في بـاب الجهـاد كما تعامل الرسـول صــلى الله عليه وســلم لمن خذله في أحد عنــدما لم يــأذن لهم بالخروج معه في حمراء، ولكل مقام أهل.

وأما حال الأسـير في الأسر فهو كما صـوره لنا أسـير الإسـلام الأول خُبيب بن عدي -رضي الله عنه-:

عن أبي هريــرة -رضي الله عنه- قــال: بعث رســول الله صــلى الله عليه وســلم عشــرة رهط ســرية عينًــا، وأمَّر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهداة (وهو بين عسفان ومكة) ذُكـروا لحيٍّ من هـذيل يقـال لهم بنو لحيـان، فنفـروا لهم قريبًا من مـائتي رجل كلهم رامٍ، فاقتصـوا آثـارهم حـتى وجـدوا مأكلهم تمرًا تزوَّدوه من المدينة، فقالوا: هذا تمر يـثرب فاقتصـوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجؤوا إلى (فدفد) وأحــاط بهم القوم فقـالوا لهم: انزلـوا وأعطونا بأيـديكم ولكم العهد والميثـاق ولا نقتل منكم أحـدًا. قـال عاصم بن ثـابت أمـير السـرية: أما أنا

فوالله لا أنزل اليوم في ذمة كافر، اللهم أخبر عنَّا نبيك. فرمـوهم بالنبل فقتلـوا عاصـمًا في سـبعة، فـنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثـــاق منهم خـــبيب الأنصـــاري وابن دثنة ورجل آخـــر، فلما استمكنوا منهم أطلقـوا أوتـار قسـيهم فـأوثقوهم، فقـال الرجل الثالث: هذا أول الغدر، والله لا أصحبكم إن في هؤلاء لأسوة -يريد القتلى-. فجــرروه وعــالجوه على أن يصــحبهم، فــأبى فقتلــوه، فــانطلقوا بخــبيب وابن دثنَّة حــتى باعوهما بمكة بعد وقعة بــدر، فابتاع خبيبًا بنو الحـارث بن عـامر بن نوفل ابن عبد منـاف، وكـان خبيب هو من قتل الحارث بن عامر يوم بـدر، فلبث خـبيب عنـدهم أسيرًا، فـأخبرني عبيد الله بن عيـاض أن بنت الحـارث أخبرته أنهم حين اجتمعوا، استعار منها موسًا يستحد بها فأعارته، فأخذ ابنًا لي وأنا غافلة حين أتاه، قـالت: فوجدته مُجلسه على فخـذه والمـوس بيده، ففزعت فزعة عرفها خـبيب في وجهي، فقـال: تخشـين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذلك. وكانت تقول: والله ما رأيت أسيرًا قط خـــيرًا من خـــبيب، والله لقد وجدته يومًا يأكل من قطف عنب في يده وإنه لموثق في الحديـد، وما بمكة من ثمـر، إنه لـرزق من الله رزقه خبيبًا. فلما خرجـوا من الحـرم ليقتلـوه في الحل قـال لهم خبيب: ذروني أركع ركعتين. فـتركوه فركع ركعـتين ثم قـال: لـولا أن تظنوا أن ما بي جزع لطولتها. اللهم أحصهم عددًا.

فقتله ابن الحارث فكان خبيب هو من سن الركعتين لكل امرئ مسـلم قتل صـبرًا، واسـتجاب الله لعاصم بن ثـابت يـوم أصـيب؛ فأخبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم أصـحابه خـبرهم وما أصيبوا. وبعث ناس من كفار قريش إلى عاصم حين حـدثوا أنه قتل ليؤتـوا بشـيء منه يعـرف، وكـان قد قتل رجلاً من عظمـائهم يـوم بـدر، فبعث الله على عاصم مثل الظلة من الـدَّبر فحمته من رسـولهم، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئًا.

وفي رواية أبي الأسود عن عـروة: [فلما وضـعوا فيه السـلاح -أي خبيب- وهو مصلوب نادوه وناشـدوه: أتحبُّ أنَّ محمـدًا مكانـك؟ قال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفديني بشوكة في قدمه].

من هـذه القصة نـرى أن أسـير الإسـلام الأول -رضي الله عنه وأرضاه- سنّ لنا سنّة وهي الركعـتين عند القتـل، وقعّد لنا قاعـدة عظيمة وهي: من كان همّه في الأسر دينه نجا، ومن كان همّه في الأسر نفسه هلك.

ويستفاد من هذه القصة أنه -رضي الله عنه وأرضـاه- خـرج من المدينة في مهمة للإسلام هو ومجموعتــه، ووُضع لهم كمين قبليٌّ بعد معركة كبـيرة انتصر فيها الإسـلام وهي بــدر، فأسر في هــذا الكمين وبيع إلى أعــدائهم الــذين انتصــروا عليهم في بــدر وقتل منهم، وهو يعلم عنــدما وصل إلى أيــديهم أســيرًا أنه ليس له إلا القتـل، فما كـان منه إلا حسن التصـبر وعظيم الثبـات؛ لـيرى منه أعداؤه أن الدين الـذي قاتل من أجله عظيم، ويسـتحق أن يُضـحى من أجلـــه، وبعد أن قـــرروا قتله -رضي الله عنه- حـــدثت هنـــاك مساومات عقائدية لينظروا حقيقة ما يحمله الرجل من إيمان، هل سيتنازل في الشدائد والابتلاءات أم سـيثبت؟ فقـالوا له: أتحبُّ أنَّ

محمدًا مكانك؟ فرد رد المؤمن الذي لا يتزعزع ولا ينثني عن مبدئه الـذي حمل من أجله السـلاح، وهو توحيد الله ونبذ الشـرك وأهلـه، فقــال: لا والله العظيم، ما أحب أن يفــديني بشــوكة في قدمــه، رضي الله عنه وأرضاه. كيف سـطر لنا التـاريخ عـزّ أولئك الرجـال في أسرهم بثباتهم، فجاؤوا يراودونه ويغرُونه بالـدنيا فقـالوا: لك حاجة قبل أن تُقتل؟ -يظنون أن ما نحمله من إيمان يباع ويُشـترى في سوق المصالح الدنيوية الدنيئة- فقال لهم: نعم أريد أن أصلي لـربي ركعـتين. -فمن أجل هـذه الركعـتين وهـذه الصـلاة لله رب العــالمين خُلقنا- فأريد أن تكــون آخر ما أودع به الــدنيا. فصــلى ركعتين -رضي الله عنه وأرضاه-، وهذا هو حال الأسـير في أسـره الصـلاة والعبـادة، فقـال بعـدما قضى صـلاته مبينًا لهم حـال هـذه العبـادة وحبه لها: والله لـولا أني أخشى أن تقولـوا خـاف المـوت لأطلتها. إي وربي لا نخـاف المـوت ما دمنا على نهج لا إله إلا الله محمد رسول الله، وما أعظم ما قاله في حاله وحال كل من بعــده من الأسرى في تلك الأبيات العظيمة:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا على أي شقٍّ كان لله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزَّع

ونلخص ما قلناه فيما يلي:

أولاً:حق الأسير على المسلمين، قـال الله عز وجل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُـوا وَلَمْ يُهَـاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَـاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَـرُوكُمْ فِي الـدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْـرُ إِلَّا عَلَى قَـوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَـاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ}، قال القرطـبي -رحمه الله-: [يريد إن دعـوا هـؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا من أرض الحرب عونكم بنفير أو مــال لاسـتنقاذهم فـأعينوهم، فـذلك فـرض عليكم فلا تخـذلوهم، إلا أن يستنصروكم على قـوم كفـار بينكم وبينهم ميثـاق، فلا تنصـروهم عليهم ولا تنقضوا العهد حـتى تتم مدتـه، قـال ابن العـربي: إلا أن يكونوا أسرى مستضـعفين فـإن الولاية معهم قائمة والنصـرة لهم واجبة؛ حتى لا تبقى منا عين تطرف حـتى نخـرج إلى اسـتنقاذهم إن كان عددنا يحتمل ذلـك، أو نبـذل جميع أموالنا في اسـتخراجهم حتى لا يبقى لأحد درهم، كذلك قال مالك وجميع العلمــاء، فإنا لله وإنا إليه راجعون على ما حل بالخلق في تركهم إخـوانهم في أسر العدو، وفي أيديهم خزائن أموال وفضول الأحوال والقدرة والعـدد والقوة والجلد]. فهذا في حـال من لم يهـاجر من المسـلمين ولم يجاهد، فكيف بمن هاجر وجاهد في سـبيل اللـه، وهو يستنصر من داخل الأسر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقال صلى الله عليه وسلم: "فكوا العـاني، (يعـنى الأسـير).." الحديث.

قــــال شـــيخ الإســـلام ابن تيمية -رحمه الله- (في مجمـــوع الفتــاوى): [فكــاك الأســارى من أعظم الواجبــات، وبــذل المــال الموقوف وغيره في ذلك من أعظم القربات].

قــال السرخسي -رحمه الله- في كتابه (المبســوط): [من وقع أسـيرًا في يد أهل الحـرب من المؤمـنين وقصـدوا قتلـه، يُفـترض على كل مسلم يعلم بحاله أن يفديه بماله إن قـدر على ذلـك، وإلا أخـبر به غــيره ممن يقــدر عليــه، وإذا قــام به البعض ســقط عن الباقين بحصول المقصود].

ثانيًا: الـواجب على كل فـرد وجماعة ومنظمة أن يبـذلوا ما في وسعهم في فك إخـوانهم الأسـرى، فمن كـان بماله فبمالـه، ومن كان بقدرته العسكرية والبدنية من خطف أو غيرها فليسـتعن بالله ولا يعجز، ومن يستطع بمجموعة أن يقتحم فليفعل.

ثالثًا: ألّا نثرب على من قام نصـرةً للأسـرى؛ ولو كـان من كـان في عدائه للجهاد والمجاهدين، ما دام في دائرة الإسلام، والواجب علينا أن ننزل الناس منازلهم، وأن لا نعلي أحدًا قدره.

رابعًا: إن من حق الأســــير علينا حفظه في عرضه وأهلــــه، فــــالواجب علينا ألا ننسى أهله بما نســـتطيع، وأن نحفظهم في معيشتهم واحتياجاتهم.

خامسًـــا: إليك أيها الأســير.. أوصـــيك بتقـــوى الله في السر والعلن، وأن لا يلتفت قلبك إلا للــه، واجعل حـــديث ابن عبــاس -رضي الله عنه- نصب عينيك: "يا غلام: إني أعلمك كلمـــات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل اللــه، وإذا اســـتعنت فاســـتعن باللـــه، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضـروك إلا بشـيء قد كتبه الله عليـك، رفعت الأقلام وجفت الصـحف" رواه الترمـذي، وأوصـيك بالقيـام والإلحــاح على الله بالـدعاء وإكثــار السـجود، والله الله في حسن الظن بالله تعـــالى، فهو الـــذي أنجى يـــونس من بطن الحـــوت ســـبحانه، وأنجى موسى وقومه من فرعـــون وفلق لهم البحر بقدرته وسلطانه.

سادسًــا: إن حق نصــركم علينا واجب، ونشـــهد الله العظيم أن ننصـركم ما اسـتطعنا إلى ذلك سـبيلاً، ولا تهنـوا ولا تحزنـوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يفرج عن أسرانا جميعًا فرجًا يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه.

اللهم إني أسأل بأنك أنت الله الرحمن الرحيم أن ترحم ضعفهم، وتربط على قلوبهم، وتشرح صدورهم، وأن تجبر كسرهم، وأن تعتقهم من أسرهم في الدنيا بفرج من عندك عاجلاً غير آجل، إنك ولي ذلك والقادر عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

